

القدس في مواجهة خطر التهويد وتوسيع الاستيطان

الدكتور سفيان فوكة
جامعة حسية بن بوعلي بالشلف - الجزائر

توطئة:

القدس عروس عربتنا ولب قضيتنا المركزية؛ إنها تجسّد جوهر الصراع العربي - الصهيوني ومنتهاه، ومرتكز الوجود العربي لمفهوم التحرر والاستقلال والنهوض، وما الاستيطان الصهيوني إلا رؤية فكرية صهيونية في الموروث الفكري اليهودي المتصهين، انطلاقا من كون الصهيونية حركة سياسية عنصرية فكرية ودينية استعمارية وعدوانية واستيطانية، تقوم على استئصال الشعب العربي الفلسطيني من أرضه لتحتلها، وتوطّن اليهود محلّه⁽¹⁾. هذا، ويعتبر التهويد والاستيطان الذي تمثّل القدس أهم ساحاته؛

أحد القضايا التي تشغل بال الرأي العام والنخبة الأكاديمية والسياسية المهمة بالقضية منذ فترة بعيدة. تهويد القدس هو جوهر المشروع الصهيوني ومآله الأخير، واليوم يستكمل هذا المشروع حلقاته الأهم من خلال تكثيف الاستيطان في مدينة القدس ومحيطها، محدثاً تغيرات على أرض الواقع تؤدي إلى إلغاء هوية القدس العربية والإسلامية، وجعلها عاصمةً يهوديّة تقطنها غالبية ساحقة من اليهود مع أقلية فلسطينية معزولة، يُمكن السيطرة عليها أو تهجيرها نهائياً خارج المدينة⁽²⁾، وما الممارسات الصهيونية على

يتم إقناع أكبر عدد ممكن من المستوطنين بالإقامة في القدس. وما هم عن ذلك ببعيد.

فمن خلال استطلاع للرأي العام العبري نجد حوالي 85% من سكان دولة الاحتلال يؤيدون فكرة إبقاء القدس موحدة تحت سيطرة دولتهم.

فيما يؤكد 75% معارضتهم لنقل السيطرة على المسجد الأقصى للفلسطينيين.

وقد أكد 91% بأن مدينة القدس يجب أن تكون عاصمة أبدية للدولة الصهيونية⁽³⁾.

خطر الاستيطان في القدس

يطلق مصطلح «استيطان» على ظاهرة محاولة القضاء على وطن ودخول عنصر أجنبي بهدف الاستيلاء على قسم من الأرض، كما كان الوضع في الجزائر مع الاحتلال الفرنسي، وكما هو الوضع الآن في فلسطين⁽⁴⁾.

أرض فلسطين والمتمثلة في تهجير الفلسطينيين تهجيراً قسرياً من قراهم ومدنهم وانتزاع الأرض من أصحابها الأصليين والسيطرة عليها بكافة الوسائل، إلا واحدة من أخطر الوسائل التي استعملها الصهاينة من أجل تحقيق أهدافهم.

ولم يعلن اليهود دولتهم حتى اكتمل العدد الكافي من المهاجرين إلى فلسطين من قبل، ومن هنا بدأ الصراع يظهر على الأرض وأخذ في نهايته شكل الصراع الجغرافي الديمغرافي، وينعكس ذلك من خلال ما تعيشه القدس حالياً حياة صعبة بالممارسات الصهيونية المتمثلة في هدم العقارات والمباني الخاصة التي تعود ملكيتها إلى الفلسطينيين، وتدمير أملاك الأوقاف أو تجريدها من طابعها الديني، إضافة إلى إقامة المستوطنات في المدينة القديمة وحولها، حيث إنه سيتم الإعلان النهائي عن القدس عاصمة يهودية خالية من الفلسطينيين حين

- أو قتلهم وإبادتهم إبادة
جماعية .

- والاستيلاء على منازلهم أو
هدمها .

- وإصدار قرارات قانونية بذلك
تنفذها الدوائر الصهيونية أو ينفذها
الجيش .

ولم يتغافل الصهاينة عن تهويد
كل الأراضي العربية الفلسطينية، وقد
تصاعد هذا الاستيطان بعد هزيمة
1967م ليبدأ منذ سنة 1969م بحفر
الأنفاق تحت المسجد الأقصى
للوصول إلى أسفل الحرم القدسي
لهدمه وبناء الهيكل المزعوم
مكانه⁽⁶⁾ .

فتهويد القدس يعني تحويل
المدينة المقدسة من هويتها
العربية لغة وثقافة وعقيدة وعادات
وتقاليد وأرضاً وسكاناً، وتاريخاً
وأرضاً وجغرافية إلى الهوية
الصهيونية اليهودية، وفق الوعد
الإلهي والتاريخي⁽⁷⁾، فالأطماع

وتكمن فلسفة الاستيطان
الصهيوني في زعم المفكرين والقادة
الصهاينة أن فلسطين هي «إسرائيل»
أو «صهيون»، وأن تاريخها قد توقف
تماماً برحيل اليهود عنها، بل إن
تاريخ اليهود أنفسهم قد توقف هو
الآخر برحيلهم عنها، ولن يستأنف
هذا التاريخ إلا بعودتهم إليها، فهو
«تاريخ مقدس» .

وقد جسدت الحركة الصهيونية
في فلسطين العقيدة التوراتية في
طرحها الاستيطان، حيث حولت
ممارساتها العملية لاستعمارها
الاستيطاني في فلسطين إلى مفهوم
توراتي «عودة الشعب إلى أرض
الميعاد»، وبذلك يتم استقبال
المهاجرين اليهود من أصقاع العام
إلى فلسطين كمهاجرين إلى «أرض
إسرائيل»⁽⁵⁾ .

اتخذ مفهوم الاستيطان عدة
أشكال أبرزها:

- عمليات التهجير القسري
للפלستينيين .

هذه المدينة، وما زالت عمارتها الأصيلة المتواصلة من العصور الرومانية إلى العصور الإسلامية تشكل الطابع الغالب فيها⁽⁹⁾.

هذه الحقائق المفزعة للصهاينة أطلقت العمل الدؤوب لحسم مصير القدس «كعاصمة يهودية موحدة لدولة الاحتلال» تحقيقاً لمقولة الزعيم الصهيوني دافيد بن غوريون: «(لا قيمة لإسرائيل بدون القدس، ولا قيمة للقدس بدون الهيكل)»⁽¹⁰⁾، وهذه هي الحقيقة «(فلا صهيونية دون استيطان، ولا دولة يهودية دون إخلاء العرب ومصادرة أراضيهم واغتصاب أملاكهم)»⁽¹¹⁾.

ورغم مقاومة المقدسين ومن ورائهم الشعب الفلسطيني فقد مرّت القدس بثلاث حلقات استدمارية؛ في حال استكمالها فإنّ نهاية المدينة العربية الفلسطينية ستكون أكيدة ولا شك فيها، وهذه الحلقات هي⁽¹²⁾:

الصهيونية بالقدس تعد جزءاً من المخططات الصهيونية العامة التي جرى تنفيذها في فلسطين على مراحل منذ نهاية القرن التاسع عشر، إلا أن الأطماع بالقدس تتميز بطابع خاص تظهر لكل من يتتبع تصريحات الزعماء السياسيين للصهيونية، وضمن أقوال هرتزل في المؤتمر الصهيوني الأول 1897: «(إذا حصلنا يوماً على القدس وكنت لا أزال حياً وقادراً على القيام بأي شيء فسوف أزيل كل شيء ليس مقدساً لدى اليهود فيها، وسوف أدمر الآثار التي مرت عليها القرون)»⁽⁸⁾.

ورغم مرور قرابة النصف قرن - اليوم - على بدء البرنامج المنظم لتهويد شرقي القدس، ورغم الإنجازات التي حققها مشروع التهويد على جبهاتٍ متعددة، ما تزال القدس العربية الإسلامية تسيطر على المشهد، فما زالت مآذن القدس وقبابها تشكّل أفق

- حلقة العزل: أي عزل القدس عن المحيط الفلسطيني.

- حلقة الطرد: أي طرد المقدسين من القدس جسدياً واقتصادياً ومن الهوية لمجرد إقامتهم في أماكن غير القدس.

- حلقة الإحلال: أي إحلال المستوطنين بدلاً من الفلسطينيين، وهذه السياسة لم تتغير حتى الآن.

تهويد القدس كبرنامج ممنهج مدروس منذ ما يزيد عن أربعين عاماً، تم من خلال خلق واقع جديد في القدس لإقامة مشروع القدس الكبرى الذي أطلق العام 1993م ومساحتها 600 كم⁽²⁾، أي ما يقابل 10% من مساحة الضفة الغربية، ويتم هذا من خلال بناء مستوطنات تبتلع كل ما هو عربي.

- وأولها هدم المقدسات الإسلامية، وبناء الكُنس على أسوار المسجد الأقصى المبارك، والاحتفالات بالمناسبات اليهودية.

- وثانيها توطين اليهود في المستوطنات وإجلاء الفلسطينيين من منازلهم والحد من قدرتهم على الوصول إلى الأماكن المقدسة والبلدة القديمة.

وقد تحقق شيء كثير من هذا البرنامج إذ تزايد عدد اليهود كسكان للقدس بشكل خطير مقابل الساكنة الفلسطينية⁽¹³⁾.

ويبرز هنا الدعم الصهيوني العالمي حيث يقوم منهج التفكير الصهيوني على مزيد من الدعم الغربي عامة، والأمريكي خاصة، رسمياً وشعبياً؛ ما يجعل الكيان الصهيوني يضع خطته لتهويد الأرض والثقافة؛ والإنسان وفق توظيف ديني عنصري⁽¹⁴⁾.

إن أبرز ما تبقى لمواجهة خطر إنهاء الوجود العربي الفلسطيني، هو تزايد سكان فلسطين عامة والقدس خاصة مقابل هجرة اليهود وإجلاء الأرض من شعبها العربي، إلا أن الصهاينة قد خططوا لذلك سياسات

- تثبيت سيطرة اليهود على المدينة، ولا يقف هذا على السيطرة العسكرية، بل يتجاوز ذلك إلى السيطرة الدينية والثقافية على المدينة، أي السيطرة على هوية المدينة وتاريخها، فقد تمت السيطرة على مساحات واسعة من الأراضي الوقفية لأغراض الاستيطان، أو شق الطرق الجانبية لتوسيع المستوطنات القائمة.

- استبعاد إعادة تقسيم المدينة بين المسلمين واليهود في أي حل مستقبلي وفرض سياسة الأمر الواقع والتغيير على الأرض من خلال وقائع جديدة.

إن انتشار الأوقاف في فلسطين لدليل واضح على هوية الأرض الإسلامية، وعليه عمدت الحكومات الصهيونية المتعاقبة على تدمير كل مظهر إسلامي للقطر الفلسطيني، فقد شهد العام 1948م وحده تدمير ما بلغ تعداد 1215 مسجداً، واستمرت هذه السياسة الهمجية

مختلفة لمواجهة التزايد الديمغرافي الفلسطيني مع التركيز على مدينة القدس.

الاعتداء على الأوقاف ومصادرتها

تعيش مدينة القدس وأوقافها حياة صعبة بالممارسات الصهيونية وحملات التهويد الشرسة التي تطال هويتها وتراثها المادي والمعنوي، حيث يختلط التاريخ الحقيقي بالمزيف والآثار الأصلية بالمبنية، لينتشر بذلك إلى جانب تهديم العقارات والمباني الخاصة التي تعود بملكيتها للفلسطينيين تدمير أملاك الأوقاف أو تجريدتها من طابعها الديني⁽¹⁵⁾.

وفي هذا الصدد يرى الشيخ «محمد حسين» المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية ورئيس مجلس الإفتاء الأعلى لفلسطين أنه عند الحديث عن أهداف الصهاينة في السيطرة على الأوقاف المقدسية فإنه يجب الأخذ بالحسبان نقطتين أساسيتين يمكن إجمالها بالآتي⁽¹⁶⁾:

إلى اليوم في عموم فلسطين وفي القدس خاصة.

ويبين الجدول التالي مدى تغول اليهود في تغيير معالم الأوقاف في القدس:

14	مساجد ومقامات حولت إلى كنس
110	مساجد أو مقامات دمرت أو هدمت كلياً أو جزئياً
750	مسجد أو مقامات أغلقت أو أهملت
107	إقامة مشاريع تجارية على أنقاض المقابر الإسلامية
206	مقابر مهدامة أو مجروفة

أي مستقبل للقدس العربية الإسلامية؟

هكذا هي صورة المعركة في القدس، إجراءات قهرية تفرض على الفلسطينيين لكي يتركوا المدينة المقدسة، وفي المقابل يعطى الصهاينة جميع الحوافز لكي

يبقوا في القدس وكي يقدوا إليها، كما أنه لا شك في كون الاستيطان يعني القضاء على مفهوم حق العودة وتأسيس الفكرة الصهيونية القائلة بـ «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض».

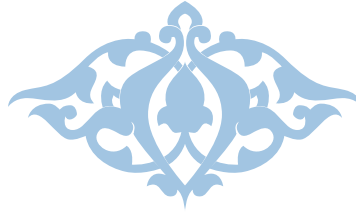
فالاستيطان مشروع صهيوني استعماري ينال من الأرض والبشر والعادات والتقاليد والثقافة وتهويدها بصورة كاملة في صميم منهج التفكير الصهيوني، الذي يعتمد أسلوباً متدرجاً لإنجاز مشروع التهويد سواء كان في القدس أم في فلسطين كلها.

كما يعني الاستيطان الاستخفاف بالقوانين الدولية، والحق التاريخي للمسلمين بالقدس، ومعناه بشكل آخر التواطؤ الدولي والخذلان لعروس أمتنا.

وبرغم كل الإجراءات التي تقوم بها القيادة الصهيونية «فالمقدسيون متمسكون بالمدينة المقدسة ولن يتخلّوا عنها، وهذا يستدعي وقفة هامة من العالمين العربي

فهل أدرك اليوم عامة العرب
أنّ ثورتهم فلسطين؟ وأنّ ربيعهم
القدس؟ وأن ميدانهم الأقصى؟ وأن
خيرنا بحق هم المرابطون من أهل
فلسطين المدافعون عن شرف أمة
بكاملها؟

والإسلامي، ومن أحرار العالم من
أجل وضع الخطط والخطوات
التي تساهم في تثبيت صمود
المقدسّين في مدينتهم وعدم إتاحة
الفرصة لتركها تحت أي ظرف من
الظروف»⁽¹⁷⁾.



الهوامش

- (1) تيودور هرتزل، دولة اليهود، مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت: 1997، ص 12 وما بعدها.
- (2) كامل محمد عمران، «تهويد مدينة القدس جوهر المشروع الصهيوني: دراسة سوسيولوجية»، جامعة دمشق: مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، عدد خاص، 2009، ص 45.
- (3) عبد الله ابحيص، بيان عيتاني، مريم عيتاني، تقرير حال القدس خلال الفترة من نيسان/ أبريل وحتى حزيران/يونيو 2011، بيروت: مؤسسة القدس الدولية، 2011، ص 23.
- (4) عبد الوهاب كيالي، الموسوعة السياسية، ص 659.
- (5) كامل محمد عمران، مرجع سبق ذكره، ص 51.
- (6) حسين جمعة، مصير القدس في ظل مشروع التهويد، جامعة دمشق: مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، عدد خاص، 2009، ص 40.
- (7) سمير جريس، القدس: المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981، ص 3 وما بعدها.
- (8) عبد الرحمن أبو عرفة، الاستيطان التطبيق العملي للصهيونية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981، ص 49.
- (9) أنظر: التقدير الاستراتيجي (16)، مستقبل القدس في ظل إجراءات التهويد، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، تاريخ النشر: 2008/19.
- (10) أنيس صايغ، الفكرة الصهيونية - النصوص الأساسية، 1970، ص 483.
- (11) عبد الرحمن أبو عرفة، مرجع سبق ذكره، ص 41.
- (12) راجع: فيصل الحسيني محاضرة ألقاها في باريس في ديسمبر/كانون الأول عام 1997 حول «القدس: تاريخ... وهوية» بدعوة من مركز الدراسات العربي - الأوروبي. في: هاني رسلان، موقع القدس في المفاوضات، مجلة السياسة الدولية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، مؤسسة الأهرام، مصر، العدد (83)، سبتمبر 1995، ص 102.
- (13) راجع: تقرير مركز الزيتونة للدراسات، شهر آب 2009، <http://www.alzaytouna.net>
- (14) سمير جريس، مرجع سبق ذكره، ص 115 وما بعدها.
- (15) أنظر: سفيان فوكة، «حماية وتنمية المقدسات الإسلامية في القدس: نحو هندسة جديدة لنصرة الأوقاف في ظل الاحتلال»، في كتاب: محمود سعيد أشقر، خالد زواوي؛ الأوقاف الإسلامية والمسيحية في القدس تحت الاحتلال الإسرائيلي ج2، رام الله: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 2013، ص 260.
- (16) محمد حسين، الاعتداءات الإسرائيلية على الأوقاف الإسلامية في القدس، في كتاب: محمود سعيد أشقر، خالد زواوي، مرجع سبق ذكره، ص 16.
- (17) القدس وصراع الديموغرافيا... تمسك فلسطيني وإجراءات صهيونية من أجل الاقتلاع، مقال منشور في موقع: <http://www.alzaytouna.net>